

إنتاج المعرفة في فكر الإمام الجرجاني (471هـ) من خلال مؤلفاته

د. بن نعمة عبد الغفار*

الملخص:

شهد القرن الخامس الهجري بروز الإمام الجرجاني (ت 471هـ) ثورة فكرية واسعة، ساهمت في تحديد التصور العام للعديد من قضايا العقل العربي والإسلامي، وكانت فرصة ملائمة لإثبات تميّز هذا العقل في النظر والاستدلال، وهي المساحة التي ظهرت فيها جهود الجرجاني تتخطى النظري إلى التطبيقي، والتقليدي إلى التميز. لقد كانت جهوده علمية وفكرية ومعرفية، واجتهد في تحديد المسالك التي تربط بين النص باختلاف طبيعته، والمتلقي، والعناصر اللفظية والمعنوية التي ترفع قيمة النص، فقطع بذلك الشك باليقين في صراع اللفظ والمعنى، وملّك الإعجاز مفهوما جامعا لكل ما يتطلبه ومانعا من كل ما يُشبهه، وأثبت للبلاغة والفصاحة والبراعة ما جعل جهوده تتعدى البيئة العربية آنذاك، إلى البيئة الغربية بعد ذاك من خلال الدراسات الأدبية والمنهجية التي اتفقت مع غيرها في اعتبار جهوده ورشة عمل واسعة النطاق في التأصيل والتأسيس، واعتماده على المنهج الوصفي التحليلي كان محاولة ذكية في فهم المسائل، وتحديد عناصرها، وتقرير نتائجها، وهي مواطن التحليل والبيان في هذا المقال.

Abstract :

A wide intellectual revolution happened during the fifth century AH (T 471 H) with the emergence of Al Imam Al Jarjaani , contributed

- أستاذ باحث في الدراسات القرآنية ، قسم الحضارة الإسلامية ، جامعة وهران 1 ، الجزائر.

in defining a general perception of a several Arabic and Islamic mind issues and it was an appropriate opportunity to prove uniqueness of this mind in considering and inference, and in this space emerged the efforts of AlJarjaani which goes beyond the theoretical to the practical, and from the traditional to the excellence.

His efforts were scientific, intellectual and epistemological .And he worked hard to identify the ways linking text depending on its nature, and the receiver, and the verbal and moral elements that raise the value of the text .So he removes all doubt about the pronunciation and the meaning conflict , he owned the inimitable a combining concept for all what it takes ,and prohibitive from any defect .And he proved to the rhetoric and eloquence and ingenuity which made his efforts exceed the Arabic environment at that time ,to Western environment after that through literary and methodological studies agreed with others in consideration his efforts as extensive workshop in indigenization and incorporation. And its dependence on descriptive analytical method was smart to try to understand the issues, and to identify its components, and to report the results, and It is the place of analysis and statement in this article.

مقدمة:

يعدُّ الإمام الجرجاني واحداً من ركائز الدراسات اللغوية والأدبية والقرآنية، سطرّ لكتاباته منهجاً مُستقلاً كان أساساً حتى في الدراسات الغربية المنهجية، ونظرياته لا تزال مادة خصبة في التناول المعرفي منذ القرن الخامس الهجري إلى الدراسات الحديثة، وسنحاول من خلال هذا المقال مدارة منهج الإمام، وتحديد ما لاقاه من اهتمام، مع التأكيد على المؤثرات المعرفية المختلفة التي ساعدت الجرجاني في تسطير نظرياته العلمية.

رغم الازدهار الحضاري الذي شهده القرنين الرابع والخامس الهجريين إلا أنه تأثر أيضاً بالتمزق السياسي الذي ساهم في ظهور دعوات التعصب العرقي التي اتخذت

شكل الثورة أحيانا تماما كما مثله الزوج آنذاك، وكذا الضعف السياسي الذي خيم على تلك الفترة بسبب نفوذ الفرس في قواعد الخلافة العباسية.

تنبّه خلفاء هذه المرحلة إلى الوضعية السائدة، وعملوا على توطيد علاقاتهم مع العلماء للتخفيف من شدة الوضع، وساهموا بذلك في توسيع الحركة العلمية ونشاطها، وسببا في ذلك الازدهار الحضاري والعلمي الذي قدّمنا به، بل كان هذا الاهتمام المزدوج من الخلفاء والعلماء سببا في نشاط الحركة الكلامية والبحث عن مسائل قرآنية مهمة كالإعجاز، وظهور تلك النظريات الجرجانية المؤصلة والمنظّرة.

1- الإمام الجرجاني من النشأة إلى التنظير:

نشأ الجرجاني في مدينة أعجمية مشهورة تسمى جرجان، تقع بين طبرستان وخراسان، وهي المدينة التي تم فتحها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سنة (18هـ)، تأثر الجرجاني بالشائع المشهور في جرجان من الفضائل والأخلاق، كما أخذ ما وجدته متناولا بين الناس ومتداولاً من علوم الثقافة الإسلامية والدراسات المنطقية، ولشدة اهتمامه بالدراسات اللغوية والأدبية والنحوية فقد انتهت إليه رئاسة النحو في زمانه، وزيادة على هذا فقد كان فقيها شافعيًا ومتكلماً أشعريًا، كان اهتمامه الكلامي سببا في اشتهاه نظريته في إعجاز القرآن الكريم، ودراساته القرآنية اللفظية والمعنوية،

إن اكتشاف سر نبوغ الجرجاني سيكون حين نقف على نسبه العلمي، حيث اختُصر في شخصه مجموعة من أفكار الأعلام كالخليل بن أحمد الفراهيدي (174هـ)، وسيبويه (180هـ)، والأخفش (208هـ)، والمازني (249هـ) والمبرد (285هـ) وابن السراج (316هـ) والفارسي (377هـ)، وجميعهم من رواد الأدب واللغة والنحو والصرف والبلاغة، ويحسن التنبيه أن القاضي أبي الحسن الجرجاني (366هـ) صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لم يكن من شيوخه كما يُتوهم وذلك لأمرين اثنين:

أ. أن الجرجاني حين يذكره في معرض التدليل أو الرد لا يصفه "بشيخنا"، بل باسمه قائلاً: "قال أو يقول القاضي أبو الحسن"¹

ب. أن الفارق الزمني بينهما يفوق القرن من الزمن، وعلى تحقيق ابن خلكان فإن تاريخ وفاة القاضي أبو الحسن هو (366هـ)²، وليس (392هـ)، وأن آخر حياته قضاها خارج جرجان متولياً بذلك مهمة القضاء بنيسابور وغيرها من المدائن، وبعد وفاته أعيد جثمانه إل جرجان ودفن بها.

كثيراً ما يستشهد الجرجاني بالشعر في تحليلاته البلاغية، كأشعار أبي تمام (231هـ)، والبحري (284هـ)، والمتنبي (354هـ)، وابن الرومي (283هـ) وغيرهم من الشعراء المولدين، وكذا الجاهليين والمخضرمين.

ومن أشهر العلماء الذين تأثر بهم من سابقه فابن جني (392هـ)، وابن فارس (395هـ)، والعسكري (395هـ)، والرماني (396هـ)، والباقلاني (403هـ)، أما الذين تأثروا بمنهجه ونقلوا عنه فالزنجشيري (532هـ)، والرازي (606هـ)، والسكاكي (626هـ)، وغيرهم. صنف الإمام الجرجاني في مختلف فنون العلم الأدبية، والبلاغية، والقرآنية، والنحوية، والصرفية، لقيت جميعها الاهتمام التام والكامل من العلماء والباحثين، شرحاً وتلخيصاً ودراسة، ومثاله كتاب "الجمال" الذي شرحه ابن البطليوسي (ت 521هـ)، وابن الخشاب البغدادي (ت 567هـ)، والبلنسي (ت 585هـ)، وغيرهم، وكتاب "دلائل الإعجاز" الذي عني به الباحثون منهم الإمام الرازي (606هـ)، والذي اجتهد في دراسة الكتاب وضم إليه كتاب "أسرار البلاغة" وجمعهما في مختصر أسماء: "نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز"، ومع ذلك فالتأكيد يلازمنا في اعتبار كتاب الدلائل والأسرار من أهم مصنفات الجرجاني التي فجر فيها معرفته ونظريته وقواعده، وسنحاول في ما يأتي من التحرير التعريج على كتاب الدلائل باعتباره أهم المصنفين.

2- الإمام الجرجاني الدلائل إلى الأسرار:

يمثل كتاب الدلائل دور الاكتمال في ثقافة عبد القاهر الذي تعمق في دراسة علوم الكلام والإعجاز القرآني، وعلوم اللغة التي كانت سببا مباشرا في عدم ورود كتابه على التصنيف والتبويب، حيث انشغل بالرد على بعض من المتكلمين ممن "تكلّموا في أمر الفصاحة والبلاغة بغير علم كالقاضي عبد الجبار وغيره من أئمة المعتزلة"³.

من الضروري التأكيد أن الدلائل كان كتاب محاضرات بالنسبة للدارسين والباحثين، كان الجرجاني يزيد فيه وينقص منه في مجالسه حتى اختلفت نُسخ تلامذته اختلافا لا يضر بجوهر القضايا والآراء المطروحة، فضلّ الكتاب إذا مصدرا في البلاغة والنقد والإعجاز عبر العصور المتتابة

حاول الجرجاني معالجة قضية الإعجاز من جوانب متعددة بلاغية ونقدية وأسلوبية وبيانية ولغوية ونحوية وصرفية، ولم يشأ أن يظهر في كتاب الدلائل كمتخصص في واحد من هذه الفنون على حساب فن آخر، بل ظهر جامعا مُلما بجميعها، وبالتالي لا يمكن أن نتصور الجرجاني في كتاب الدلائل منفردا معزولا في معالجة قضاياها. لا تكاد الدراسات البلاغية في حديثها عن مسائل النظم تستغني عن ذكر الجرجاني، وهو الذي ظلّ بصدق بما في الدلائل والأسرار معا، حتى اجتهدت بعضها في اعتبارها من أبرز منجزات الفكر النقدي على مر العصور"⁴. ويبدو واضحا أن نجاح النظرية الجرجانية في النظم كانت لعدم المفاضلة عنده بين اللفظ والمعنى"⁵، ومن ثم تتداخل الفصاحة مع البلاغة في بعض الإطلاقات، ومع ذلك فالبحت يستعجل الإعلان عن موقف الجرجاني من اللفظ والمعنى الذي قد لا يبيّن إلا بعد تدقيق، حيث نقرأ له عبارات تدلّ على إعلاء اللفظ وتسييفه على المعنى، ونقرأ له جملا تُبعد اللفظ وتُعلي المعنى، ونقرأ له ما يسوّي بينهما دون تقديم أحدهما ولا تأخير للآخر، وحاصل

الأمر أنه في الأولى وهو ينتصر للفظ على المعنى كان يرد على المغالين في قيمة المعاني، الحائفين على الألفاظ، وأنه في الثانية وهو ينتصر للمعنى دون اللفظ كان يرد على مَنْ جعلوا المزية للفظ وبالغوا في قيمته وحافوا على المعنى، خاصة وقد أشار العلامة ابن عاشور أن الجرجاني عمد إلى: "تقعيد علمي المعاني والبيان حين تحكّمت الألفاظ في عصره واستبدت على المعاني"⁶، أما في الثالثة وهو يساوي بينهما كان يعلن عن "موقفه وييدي رأيه الخالص في هذه القضية"⁷ التي شغلت مساحة طويلة عريضة عند النقّاد القدماء.

من الضروري التنبيه أن الجرجاني في الدلائل بقدر ما ظهر مؤصلا ومؤسسا فقد كان رادا وناقدا، فلم يكن راضيا عما تمّ تقريره في الإعجاز من سابقه، كما لم يسلم للمعتزلة ما أثبوتته حول الفصاحة حين اعتبروها: "خصوصية في نظم الكلم وضمّ بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة، أو على وجوه تظهر بها الفائدة"⁸، ومن ثمّ فنظرية النظم هذه ابتكرها الجاحظ وتحّدث فيها بما يراه، وانتقدها الجرجاني وأصل لها وأحاطها باللفظ والمعنى معا.

لن يختلف الجرجاني في كتاب الأسرار عن الجرجاني في كتاب الدلائل، فقد حاول في الأسرار أن يؤسس لعلم البيان من تشبيه وكناية واستعارة ومجاز ولألوان البديع"⁹، وهو حين يدرس هذه القضايا لا يزال يؤكد أن الجمال كما يرتبط باللفظ والمعنى معا قد يتعلق بالمعنى أكثر من اللفظ، فيقول مي معرض حديثه عن البديع: "فلا شبهة أنّ الحُسْنَ والقُبْح لا يعترض الكلامَ بهما إلّا من جهة المعاني خاصّةً، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيبٌ"¹⁰.

حين حدّد الجرجاني موقفه من السرقات الشعرية التي أعارها اهتماما خاصا، انتهت واجتمعت له مباحث علم البيان، ووصلت بعد ذلك مدارساته إلى مرتبة التأصيل والمصدرية، واستقرت في المصنفات بعده علمي المعاني والبيان، وإذا لم يكن الغرض من

التحليل ادعاء سبق التفكير الجرجاني في تأليف كتابين أحدهما في المعاني والثاني في البيان، إلا أن الاستقرار النهائي على هذين الفنيين يُشعر بذلك الحس الذي امتلكه الجرجاني في التأسيس والتأصيل، يُفهم هذا من خلال شعور الجرجاني بمدى الاتصال والتكامل الحاصل بينهما، لذا نجد في كتاب الدلائل الذي أصّل فيه للمعاني يقول عن البيان: "ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا، وأسبق فرعا، وأحلى جنى، وأعذب وردا، وأكرم نتاجا، وأنور سراجا، من علم البيان"¹¹، ونجد في كتاب الأسرار الذي أصّل فيه للبيان يقول عن المعاني: "واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق"¹².

الجوانب اللغوية والنحوية عند الجرجاني:

حين نقرأ عبارة الجرجاني في الدلائل: "اعلم أن ليس «النّظم» إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم النحو»، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها. وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه..."¹³. سنكتشف أنه يجتهد في التأكيد على أن "انخراط الألفاظ والمعاني في سلك النظم بأي هيئة إعرابية كانت إنما ذلك تماشيا مع تنوع المعاني وتحددها"¹⁴، ويعمل على توجيه الدلالة النحوية في النص بهذا الاعتبار، على أساس أنه كيان له بنيانه، يتطلب ذلك إيجاد روابط وعلاقات التأثير بين أبنيته الداخلية، حيث تشترك الفاعلية والمفعولية، والحالية والبرية والتميز.... وغيرها تشترك وتؤثر. في تركيب الدلالة المتكاملة، فالكلمة بدلالاتها المختلفة والمركبة لا يمكن تمييز صوابها وأقربها إلا بالتحليل، وحين نقرأ في مصنفات الأدب واللغة نتأكد أن اللفظ له دلالة معجمية سكوتية وهي أصل المادة اللغوية، وهي تتشكل في كل مرة على حسب الوزن والاشتقاق، صوّر، يصوّر، يتصوّر....، وبعدها يمكن الوقوف على

الوظيفة النحوية التي تضاف إلى الكلمة حينما تحل في ركن من أركان الجملة أو العبارة، كل هذا سبب في تجاوز الدلالة المفردة للكلمة بعد إدراك البعد الصرفي والمعجمي، إلى دلالة المعنى المتغيرة حسب التوظيف، تماماً كما يوضحه حين يقول: "إِعلم أَنَّ التصريفَ "تَفْعِيلٌ" مِنَ الصَّرْفِ، وَهُوَ أَنْ تُصَرِّفَ الْكَلِمَةَ الْمَفْرَدَةَ، فَتَتَوَلَّدَ مِنْهَا أَلْفَاظٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَمَعَانٍ مُتَفَاوِتَةٌ"¹⁵.

كل هذا يتفق تماماً مع دعاواه المتكررة حول احترام التركيب وإغفال الأفراد، وأن الكلمة لا تؤدي معناها في سياقها المعزول، بل من خلال إطارها العام من التوظيف والاستعمال، وحين آمن الجرجاني بالكلمة في سياقها العام وهو يدارس النظم والإعجاز القرآني، واقتنع أن: "الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"¹⁶. حين آمن واقتنع بهذا. ظهر كأنه بذلك يعتبر المعنى حكماً، والحكم لا يظهر إلا من خلال السياق العام والمتعدد، حيث يكشف السياق في كل مرة عن مسألة جديدة تنفع في تحرير الحكم، لأجل هذا اجتهد الجرجاني في شرح ذلك فشرح في مقام الشرح، واختصر في مقام الاختصار، وأطال وأوجز، وحصر واعتصر جهوده البلاغية والأسلوبية في أربع نقاط هي: "النظم والبناء والترتيب والتعليق، وكلها أمور تتصل بالتراكيب أكثر مما تتصل بالمعاني المفردة"¹⁷، ونقل هذه المعاني ابن الأثير حين يقول: "هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها، وأفردت من بين أخواتها، كانت لابسةً من الحسن ما لبسته في موضعها من الآية، ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك في كلام، ثم تراها في كلام آخر فتكرهها، فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها"¹⁸.

لقد جاءت نظرية النظم مرتبطة بالفصاحة لا بمعنى حسن اللفظ وما يتصل بذلك من الصور البيانية بل بمعنى اعتبار المسائل النحوية في فحوى الكلام، حتى ظهرت نظريته في النظم كأنها تجمع بين النحو وعلم المعاني"¹⁹.

ينتقل الجرجاني في معرض تأسيسه للنظم بالكلمة نقلة نوعية، فحين يكشف أن الكلمة تكتسب دلالاتها المتميزة من تفاعل التصور فيها مع التصورات الأخرى المكتسبة من الأسماء والصفات والأفعال، حيث تتأثر بمثيالاتها من الكلمات الواردة في النص، وهي تفيد من محيط النص وإيجاءاته، ويؤكد هذا تصريحه قائلاً: "فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملتا كلمتا بأعيانها، ثم ترى هذا قد فرع السماء"²⁰، وترى ذاك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحققت المزية والشرف استحققت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إقماً أن تحسن أبداً، أو لا تحسن أبداً"²¹، وعليه فالكلمة لا يزهر لها معنى إلا بالنظر إلى موقعها من العبارة واحتلالها لمكانها في الكلام.

تجنح بعض الدراسات والأبحاث إلى وصف دراسات الجرجاني النحوية والصرفية: "أذكى محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تاريخ التراث العربي إلى الآن"²²، خاصة مع ارتباط منهجه بالإيداع في الربط بين النحو والنظم والبيان، فالجرجاني في "تصوره لمرجعية النظم يجعل معاني النحو ضرورية في هذا التصور، ويحيل أيضاً إلى الصور البانية التي تشكل في فكر المبدع ونظمه، وتُعين المتلقي في التمييز بين أحسنها وقيحها"²³، فيقول: "وذلك لأن هذه المعاني التي هي «الاستعارة»، و«الكناية» و«التمثيل»، وسائر ضروب «المجاز» من بعدها من مقتضيات «النظم»، وعنه يحدث وبه يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوَّخَّ فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون هاهنا «فعل» أو «اسم» قد دخلته الاستعارة، من دون أن يكون قد آلف مع غيره"²⁴.

3- الجوانب الفلسفية في منهج الجرجاني:

اعتمد الجرجاني على القياس الاستدلالي في معالجة القضايا مما يبرّر اطلاعه على الكتب المنطقية الأرسطية، كما أن انتمائه إلى الأشاعرة بما عُرفوا به من اهتمام بعلم الكلام جعل منهجه يتبع هذا الطريق في الاستدلال، يكفينا في التدليل على هذا طريقته في دراسة الشعر والخطابة، وذاتها الطريقة والمنهج ساعده على تقرير استنتاج واقعي حول اللغة حيث كان وضعها الأول والأساسي للتواصل والترابط بين الناس، وأن تبويبها وترتيبها كان قائما على مسائل النظم الذي يتخذ الاعتبارات التالية²⁵:

. أن الألفاظ خادمة للمعاني وأوعية لها .

. أن النظم هو تتبع للمعاني واعتبار للأجزاء مع بعضها

. أن نظم الكلم يكون بالترتيب

. معرفة مدلول العبارات أولى من العبارات

تجتهد بعض الدراسات انطلاقا من قيمة النظرية الجرجانية في الدعوة سريعا إلى توظيفها في الدراسات اللغوية الحديثة، لأنها في نظرهم دليل على معرفة وزن هذه الدراسات اللغوية العربية والإسلامية، لذا فتحديد موقف متوازن وعادل وموضوعي من هذا التراث "لا ينبغي أن ينطلق من شعور عاطفي يقتصر على تمجيد كل ما قاله علماء العربية، بل يجب كشف القيمة العلمية لهذا التراث في مجالات اللغة والعربية"²⁶.

ونظرا لما تشهده الجامعات العربية من تعيير في المناهج والأساليب الدراسية التي قد تخلو أحيانا من الفضائل لفاعل التوجه إلى المناهج الغربية، فقد جاءت دعوة هذه الأبحاث مُلحة إلى: "إدخال نظرية الجرجاني اللغوية كمقرر أساسي في كليات الآداب في الجامعات العربية، وتحديد موقعها العام في علم اللغة الحديث"²⁷.

نعتقد أن الصبغة الفلسفية واضحة في المسائل التي طرقها الجرجاني، ونستدل

على ذلك بعزوه المتكرر على آراء ومواقف أرسطو حتى وإن لم يُصرَّح باسمه، فنجد أنه يُعلم في معرض الحديث عن الاستعارة والمجاز قائلاً: "أن قصدي في هذا الفصل أن أبين أن المجاز أعمُّ من الاستعارة، وأن الصحيح من القضية في ذلك: أن كلَّ استعارة مجاز، وليس كلُّ مجازٍ استعارة، وذلك أننا نرى كلامَ العارفين بهذا الشأن أعني علم الخطابة ونقد الشعر، والذين وضعوا الكتب في أقسام البديع، يجري على أن الاستعارة نقلُ الاسم من أصله إلى غيره للتشبيه على حدِّ المبالغة"²⁸، ولا نظنه يقصد بالعارفين غير أرسطو فهو الذي كتب عن الخطابة ونقد الشعر.

ومثال ذلك أننا حين نقرا لأرسطو مقولة عن الاستعارة مفادها: "أنه ينبغي إذا أراد الخطيب أن يستعير أن يأخذ الاستعارة من جنس مناسب لذلك الجنس مُحاكٍ له غير بعيد منه ولا خارج عنه"²⁹، فإننا سنجد أيضاً الجرجاني يتبنى هذا الموقف حين يقول: "وملاك الاستعارة، تقريب الشَّبه، ومناسبة المستعار للمستعار منه"³⁰ ولا يكاد يختلف المعنى الأرسطي عن المعنى الجرجاني.

4- المعرفة واللغة عند الجرجاني:

حاول الجرجاني إلى جانب دراسته للنظم ولللفظ والمعنى أن يُحلِّل المعرفة الإنسانية، فاجتهد في تأصيل منهجها، معتبراً أصل هذا المنهج يجب أن يعتمد على "تحليل اللغة سواء في الفكر أو الأدب أو أي فن من الفنون"³¹. تابع الجرجاني تأصيل هذه الفكرة رافضاً احتكار ألفاظ اللغة عند جهة لغوية دون أخرى، بل هي ملك مشاع يوظف كلُّ منها حسب ما يحتاج، وعليه ترد "معانيهم حسب مراميهم"³² ولا يزال تأكيد الجرجاني على حسن اللفظ من خلال موقعه في الكلام سواء في البيان أو في اللغة، كل ذلك لذكاء منه يُساعد في إدراك المعرفة وإنتاجها، يمكن توصيف هذا بدعوته إلى إدراك مدلول البراعة³³ واستنطاق اللفظ بما يحمله من معاني، وإشهارها بالسبك والرصف في الإطار العام للجملة"³⁴.

من قضايا المعرفة عند الجرجاني إنتاج النص اللغوي، وهو يرتبط وثيقا بالمتكلم المسؤول الأول عن إنتاج معرفة معقولة ومقبولة، تؤكد الدراسات اللغوية والبيانية على العلاقة القائمة بين "قصد المتكلم والنص اللغوي فأحدهما سبيل على الكشف عن الآخر"³⁵.

من الضروري التنبيه أن نظرة الجرجاني إلى اللغة وعلاقتها بالإعجاز فيها صبغة أشعرية قي مقابل النظرة الاعتزالية، وظهر ذلك في اجتهد الطرفين في إثبات التفاوت في مزية النظم، فالقاضي عبد الجبار المعتزلي ينطلق في التأسيس لذلك من اعتبار المزية في الصياغة اللفظية للكلام، "لأن المعاني ضرورية فلا تظهر مزيته، بحيث يتفاوت المعبرون عن المعنى الواحد في الفصاحة مع اتفاق المعنى، وقد يكن أحدهما أحسن وأرفع والمعبر عنه في الفصاحة أدون، فهو لا بد من اعتباره وإن كانت المزية تظهر بغيره"³⁶، وبالتالي فالمعاني عنده "لا يقع فيها التزايد يقدر ما يظهر في الألفاظ وتكتسب الصياغة خصوصيتها في الأداء والتعبير من خلال ما يتضح فيها من عناصر الاختيار الذي تختص به الكلمات أو التقدّم والتأخر الذي يختص به الموقع، أو الحركات التي يختص بها الإعراب، وبهذا تقه المباشرة بين الكلامين"³⁷، والنظرة الاعتزالية هنا تكمن في انطلاق المعتزلة في الكشف عن العلاقة بين اللغة والإعجاز من "الدليل الذي تشكله الألفاظ في الرسالة - القرآن الكريم. وحاولوا الوصول بها إلى المعاني التي يتغيّاها المرسل"³⁸.

أما موقف الجرجاني من مرجعية المزية في النظمفاعتمدت على المعنى، وذهب إلى أن "ترتيب الألفاظ في الذكر تكون تبعا لترتيب المعاني في النفس، وأنه كلما تغيّر النظم تغيّر المعنى"³⁹، وعليه ترى بعض الدراسات "أن المعاني المعبر عنها بالألفاظ لا توجد في الذهن بشكل فجائي اغتباطي، بل هناك مراحل متكاملة بعضها يقود إلى بعض بمجموعها تتشكل القدرة البائية عند الإنسان"⁴⁰ ويناء على هذا فالنظرة

الاعتزالية في الربط بين اللغة والإعجاز تنطلق من قائل الدليل أو الكلام النفسي الذي يمثله المعنى إلى الألفاظ التي يمثّلها النظم"⁴¹.

بالرجوع تأكيداً على مسألة إنتاج المعرفة في كتابات الجرجاني يحتل المتلقي عنده دوراً بارزاً ومهماً، بحيث يتعدى المتلقي عنده حدود مجرد استقبال الصور البيانية من مجاز وتشبيه وكناية واستعارة إلى تحليل التأثير الذي تُحدثه هذه الصور في نفسيته وذاته مما يدعوه إلى الإنتاج والإبداع، فظهر الجرجاني بهذا الطرح "منتقلاً من العلاقة الأفقية بين النص وعناصره، إلى العلاقة العمودية بين هذه العناصر والمتلقي، فلا يكون بذلك ذلك التأثير عرضياً قد يحدث وقد لا يحدث"⁴²، بل مقصوداً ومنتظراً، وإنما عمد الجرجاني إلى هذا الطرح لإيمانه وقناعته بأن الذوق الأدبي الذي افتقده الناس لا يتم تحصيله إلا بمراعاة العلاقة القائمة بين النص وعناصره اللغوية والبيانية والمتلقي وإدراك المعرفة، لذا نجده في الأسرار يتابع تأكيده الذي طرحه في الدلائل على "العلاقة السببية بين المتوقع واللامتوقع من النص وأهميتهما بالنسبة للمتلقي في حدوث التأثير والتفاعل المنتظر والمرجو بين النص والمتلقي"⁴³.

فيقول في فصل مواقع التمثيل وتأثيره: "فأما القول في العلة والسبب، لم كان للتمثيل هذا التأثير؛ وبيان جهته ومآتاه، وما الذي أوجبه واقتضاه، فغيرها، وإذا بحثنا عن ذلك، وجدنا له أسباباً وعدلاً، كلٌّ منها يقتضي أن يفحّم المعنى بالتمثيل، وينبئ ويشرف ويكمل، فأوّل ذلك وأظهره، أن أنس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى جليٍّ، وتأثيرها بصريح بعد مكثٍّ، وأن تردّها في الشيء تُعلّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقّتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يُعلّم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواسّ أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظنُّ كاليقين، لهذا يحصل بها العلم هذا

الأُنسُ أعني الأُنس من جهة الاستحكام والقوة...⁴⁴.

من أهم ما يُلاحظُ على طرح الجرجاني محافظته على نفسه وآرائه في الدلائل والأسرار معا بحيث لا نجد بين قضايا الكتابين تناقضا ولا تباينا، بحيث حرص فيهما على استخلاص المعرفة واحترام المتلقي، وهدم ثنائية اللفظ والمعنى، وإحاحه على نظرية النظم التي تتكشف بها أسرار البلاغة، وتعرف بها دلائل الإعجاز.

خاتمة:

بعد هذه القراءة السريعة لفكر الإمام الجرجاني يبدو أنه رغم محاولات الجرجاني في الرد على المعتزلة وانتقادهم في نظرتهم التي تعتبر النظم وجها يردُّ إليه الإعجاز القرآني، واجتهد في ربط فكرة الكلام النفسي بمبدأ معاني النحو. إلا أنه بقي أسيرا لتصورات المعتزلة، وغيرهم ممن درسوا مسألة النظم من جوانبها اللغوية والنحوية والنقدية والبلاغية، وأعنته في إنضاج وتكوين الصورة العامة والكاملة للنظم⁴⁵.

إذا أردنا النظر في منهج الجرجاني وتحديدده لنجذبنا إلى المنهج التقريري كما يُفنيه مصطلح "إعلم" الوارد في تعبيرات الجرجاني بكثرة ظاهرة كأنه يقرُّ ابتداءً، لكن التدقيق سيُحيلنا إلى المنهج الوصفي التحليلي بأنه يصف الداء ويحلُّله، ثم يقرُّ ما يراه ويطمئن إليه، فأفاد من كتابات سابقيه، وأفاد منه لاحقوه، ولا تزال كتاباته تصنع الاختلاف في الطرح، والتأصيل للمسائل والقضايا، لم يغيب منهجه الوصفي التحليلي لا في الكتابات اللسانية ولا البيانية ولا اللغوية ولا النحوية، ولا غيرها من فنون الأدب واللغة، وهي التي تجد في منهجه ملاذا واضحا في التدارس والتباحث، تماما كما اتخذته هو في الدلائل والأسرار وجعل منه مُنقذا لما استشكله من القضايا.

نعتقد أن كتابي الدلائل والأسرار رغم كثرة الدراسات التي طالتهما تحقيقا وتباحثا، فلا يزالان في قمة الاستعداد لتقديم رؤى جديدة في واحد من فنون الأدب واللغة، أو في

الدراسات النقدية الحديثة، سيُلمزونا الإنصاف العلمي في الإعلان أن النظم والإعجاز بدأ فكرة عند الجاحظ وله فضل السبق في الطرح، وانتهى نظرية عند الجرجاني وله فضل السبق في التأصيل، وبين الرجلين يعلو القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر، وعليه فسيكون من البديهي إذا اعتبار النظم والإعجاز عصارة جهود بدأت اعتزالية وانتهت أشعرية، وبين المذهبين تظهر نظرية اللفظ والمعنى تتجاذب التمايز والمزية فتعلو إحداها أحياناً، وتسفل الثانية أحياناً أخرى، ويظهران في ذات الاعتبار أحياناً أخرى، على حسب التعبير والجمل والسياق.

الهوامش:

- ¹ . الجرجاني، عبد القاهر أبو بكر، أسرار البلاغة، قراءة وتعليق، محمد محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مطبعة المدني، جدة، ص 129.
- ² . ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1900، ج3، ص 281.
- ³ . الجرجاني غيد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق، عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م، ص 4.
- ⁴ . ابن كمال، شمس الدين أحمد بن سليمان، رسالة في تحقيق معنى النظم والصياغة، تحقيق، حامد قنبي، الجامعة الإسلامية، السعودية، 1406هـ، ص 169.
- ⁵ . المرجع نفسه، ص 177.
- ⁶ . الطاهر ابن عاشور، مجلة المنار، مقال مقدمتنا لكتاب أسرار البلاغة، ج5، ص 74.
- ⁷ . المطعني عبد العظيم إبراهيم، المحاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار، مكتبة وهبة، ط1، 1416هـ، 1995م، ص 50.
- ⁸ . الجرجاني، الدلائل، ص 35.
- ⁹ . القزويني، محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق، محمد بن عبد المنعم خفاجي، دار الجليل، بيروت، ط3، ج1، ص 7.

10. الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 20.
11. الجرجاني، الدلائل، ص 15.
12. الجرجاني، الأسرار، ص 26.
13. الجرجاني، الدلائل، ص 60.
14. أحمد الوديني، أصول النظرية النقدية القديمة من خالل قضية اللفظ والمعنى في خطاب التفسير، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ص 147.
15. الجرجاني، المفتاح في الصرف، تحقيق، علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ، 1987م، ص 26.
16. الجرجاني، الدلائل، ص 40.
17. تمام حسن عمر، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط 5، 1427هـ، 2006م ص 12.
18. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق، أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ص 166.
19. محمد مندور، في الميزان الجديد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ص 152.
20. السماك مفرد السماكان كما في المشهور، وهما نجمان نيران أحدهما السماك الأعزل والآخر السماك الرامح/ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 1414هـ، ج 10، ص 443/ والمعنى أن أحدهما وظف المعنى في أعلى مراتبه، والثاني في أدنى مراتبه.
21. الجرجاني، الدلائل، ص 41.
22. تمام حسن عمر، المرجع السابق، ص 186.
23. أحمد سعيد محمد، نظرية البلاغة العربية . دراسة في الأصول المعرفية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 2009، ص 13.
24. الجرجاني، الدلائل، ص 252.
25. جعفر دك الباب، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني نظرية الإمام الجرجاني اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث، دار الجيل، دمشق، ط 1، 1400هـ، 1980م، ص 154.
26. المرجع السابق، ص 154
27. المرجع السابق، ص 154.

- 28 الجرجاني، الأسرار، ص 398.
29. القزويني، المصدر السابق، ج3، ص 231.
30. الجرجاني، الأسرار، ص 399.
- 31 . محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1418هـ، 1998م، ص ص 52 ، 53.
32. المرجع نفسه، ص 57.
- 33 . جاء هذا التعبير لأن الجرجاني يُصرِّح في الدلائل أنه لا يفهم ما أَراده العلماء من مصطلح البراعة وهو يجتهد في تفسير ذلك بما يخدم نظرياته/ الدلائل، ص 33.
34. محمد أبو موسى، المرجع السابق، ص 50.
35. سعيد البحيري، دراسات لغوية وتطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، زهراء الشرق، القاهرة، 1997م، ص 184.
- 36 القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق، أمين الخولي، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، 1960م، ج16، ص 199.
37. أحمد سعيد محمد، المرجع السابق، ص41.
38. ينظر محمد سعد شحاتة، العلاقات النحوية وتشكيل الصورة الشعرية عند محمد عفيفي مطر، سلسلة كتابات نقدية، 136، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2003، ص ص 99/94.
39. الجرجاني، الدلائل، ص 42.
- 40 . إبراهيم محمد الجرمي، أثر الدلالة اللغوية في اختلاف المسلمين في أصول الدين، دار قتيبة للطباعة والنشر، ط1، 2006م، ص 62.
41. محمد سعد شحاتة، المرجع السابق، ص ص 99/94.
- 42 . بادكار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآني، دار الزمان للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2010، ص 33.
43. المرجع نفسه، ص 236.
44. الجرجاني، الأسرار، ص 121.
45. أحمد سعيد محمد، المرجع السابق، ص 43.